

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ قَالَ: اشْتَهَيْتُ الْأَزَادَ، وَأَنَا بِبَغْدَادَ، وَلَيْسَ مَعِيَ عَقْدٌ عَلَى نَقْدٍ، فَخَرَجْتُ أَنْتَهَزُ مَحَالَهُ حَتَّى أَحْلَنِي الْكَرْخَ، فَإِذَا أَنَا بِسَوَادِي يَسُوقُ بِالْجَهْدِ حِمَارَهُ، وَيُطَرِّفُ بِالْعَقْدِ إِزَارَهُ، فَقُلْتُ: ظَفَرْنَا وَاللَّهِ بِصَيْدٍ، وَحَيَّاكَ اللَّهُ أَبَا زَيْدٍ، مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ وَأَيْنَ نَزَلْتَ؟ وَمَتَى وَافَيْتَ؟ وَهَلُمَّ إِلَى الْبَيْتِ، فَقَالَ السَّوَادِيُّ: لَسْتُ بِأَبِي زَيْدٍ، وَلَكِنِّي أَبُو عُبَيْدٍ، فَقُلْتُ: نَعَمْ، لَعَنَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ، وَأَبْعَدَ النَّسِيَانَ، أَنْسَانِيكَ طُولَ الْعَهْدِ، وَاتِّصَالَ الْبُعْدِ، فَكَيْفَ حَالُ أَبِيكَ؟ أَشَابُ كَعَهْدِي، أَمْ شَابَ بَعْدِي؟ فَقَالَ: قَدْ نَبَتَ الرَّبِيعُ عَلَى دِمْنَتِهِ، وَأَرْجُو أَنْ يُصِيرَهُ اللَّهُ إِلَى جَنَّتِهِ، فَقُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، وَمَدَدْتُ يَدَ الْبِدَارِ إِلَى الصِّدَارِ أُرِيدُ تَمْزِيْقَهُ، فَقَبِضَ السَّوَادِيُّ عَلَى خَصْرِي بِجُمُعِهِ، وَقَالَ: نَشَدْتُكَ اللَّهَ لَا مَزَقَتَهُ، فَقُلْتُ: هَلُمَّ إِلَى الْبَيْتِ نُصِيبْ غَدَاءً، أَوْ إِلَى السُّوقِ نَسْتَرِشَوَاءَ، وَالسُّوقُ أَقْرَبُ، وَطَعَامُهُ أَطْيَبُ، فَاسْتَفَزْتُهُ حُمَةُ الْقَرَمِ، وَعَطَفْتُهُ عَاطِفَةُ اللَّقَمِ، وَطِمِعَ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ وَقَعَ، ثُمَّ أَتَيْنَا شَوَاءً يَنْقَاطِرُ شِوَاؤُهُ عَرَقًا، وَتَنْسَائِلُ جُودَابَاتِهِ مَرَقًا، فَقُلْتُ: افْرَزْ لِأَبِي زَيْدٍ مِنْ هَذَا الشَّوَاءِ، ثُمَّ زِنْ لَهُ مِنْ تِلْكَ الْحُلَوَاءِ، وَاخْتَرِلْهُ مِنْ تِلْكَ الْأَطْبَاقِ، وَانْضِدْ عَلَيْهَا أَوْرَاقَ الرُّقَاقِ، وَرُشْ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ مَاءِ السَّمَّاقِ، لِيَأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيئًا، فَانْحَنِ الشَّوَاءَ بِسَاطُورِهِ، عَلَى زُبْدَةِ تَنْوَرِهِ، فَجَعَلَهَا كَالْكُحْلِ سَحْقًا، وَكَالطَّحْنِ دَقًّا، ثُمَّ جَلَسَ وَجَلَسْتُ، وَلَا يَيْسَ وَلَا يَيْسْتُ، حَتَّى اسْتَوْفَيْنَاهُ، وَقُلْتُ لِصَاحِبِ الْحُلُوى: زِنْ لِأَبِي زَيْدٍ مِنَ اللَّوزِينِجِ رِطْلَيْنِ؛ فَهُوَ أَجْرَى فِي الْحُلُوقِ، وَأَمْضَى فِي الْعُرُوقِ، وَلِيَكُنْ لَيْلِي الْعُمْرِ، يَوْمِي النَّشْرِ، رَفِيقَ الْقَشْرِ، كَثِيفَ الْحَشْوِ، لُؤْلُؤِي الدُّهْنِ، كَوَكْبِي اللَّوْنِ، يَذُوبُ كَالصَّمْغِ، قَبْلَ الْمَضْغِ، لِيَأْكُلَهُ أَبُو زَيْدٍ هَنِيئًا، قَالَ: فَوَزَنَهُ ثُمَّ قَعَدَ وَقَعَدْتُ، وَجَرَدَ وَجَرَدْتُ، حَتَّى اسْتَوْفَيْنَاهُ، ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَبَا زَيْدٍ، مَا أَحْوجَنَا إِلَى مَاءٍ يُشَعِّشُ بِالتَّلَجِّ، لِيَقْمَعَ هَذِهِ الصَّارَةَ، وَيَقْنَأَ هَذِهِ اللَّقَمَ الْحَارَةَ، اجْلِسْ يَا أَبَا زَيْدٍ حَتَّى نَأْتِيكَ بِسَقَاءٍ، يَأْتِيكَ بِشَرِبَةِ مَاءٍ، ثُمَّ خَرَجْتُ وَجَلَسْتُ بِحَيْثُ أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ، فَلَمَّا أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ قَامَ السَّوَادِيُّ إِلَى حِمَارِهِ، فَاعْتَلَقَ الشَّوَاءَ بِإِزَارِهِ، وَقَالَ: أَيْنَ تَمْنُ مَا أَكَلْتُ؟ فَقَالَ: أَبُو زَيْدٍ: أَكَلْتُهُ ضَيْفًا، فَلَكَمَهُ لَكَمَةً، وَتَنَّى عَلَيْهِ بِلَطْمَةٍ، ثُمَّ قَالَ الشَّوَاءُ: هَاكَ، وَمَتَى دَعَوْنَاكَ؟ زِنْ يَا أَخَا الْقِحَةِ عَشْرِينَ، فَجَعَلَ السَّوَادِيُّ يَبْكِي وَيَحُلُّ عَقْدَهُ بِأَسْنَانِهِ وَيَقُولُ: كَمْ قُلْتُ لِدَاكَ الْقَرِيدَ، أَنَا أَبُو عُبَيْدٍ، وَهُوَ يَقُولُ: أَنْتَ أَبُو زَيْدٍ، أَعْمِلْ لِرِزْقِكَ كُلَّ آلَةٍ *** لَا تَقْعُدَنَّ بِكُلِّ حَالَةٍ وَانْهَضْ بِكُلِّ عَظِيمَةٍ *** فَالْمَرْءُ يَعْجِزُ لَا مَحَالَةَ